

أهمية تفاعل الآباء والأمهات مع أبنائهم

من أجل تربية أسرية سليمة

د. ولسيم ملاح أبو ياسين

الجامعة الدولية اللبنانية / لبنان

wassim.abouyassin@liu.edu.lb

هل أتعامل مع أبنائي بطريقة سليمة؟ هل لديّ المهارات اللازمة لتربية الأبناء؟ لماذا لا يتمتع ولدي بالثقة بالذات؟ لماذا لا تأخذ ابنتي المبادرة عند اللزوم؟...

يتساءل العديد من الآباء والأمهات عن مدى استعدادهم للتعامل مع أبنائهم من أجل تربية أسرية فعّالة وتنشئة جيل يتمتع أفرادُه بقوة الشخصية، والثقة بالذات، والاعتماد على النفس والقدرة على اتخاذ القرارات الصائبة؛ وما إلى هنالك من خصائص تؤدي إلى نجاح الأهل في مهمّة تربية الأبناء.

قد تكون مهمّة الأهل في تربية الأبناء تجربة رائعة وممتعة، ومصدر فخرٍ واعتزاز لهم؛ ويمكن أن تمثل هذه التجربة مجموعة من الفرص التي يتم من خلالها المساهمة في بناء جيل المستقبل الواعد بإذن الله؛ كما أنها، في المقابل، قد تكون تجربة مؤلمة وشاقة ومصدر قلقٍ وانزعاج للأهل وللأبناء، ويمكن أن تمثل مجموعة من التحديات المستمرة والمصاعب التي لا تُحمد عقبائها.

وبناء عليه، فإن الأبوة والأمومة وظيفتان أساسيتان ينبغي أن يتعلّمهما الوالدان قبل إنجاب الأبناء، بل قبل الزواج إن أمكن.

يرى العديد من التربويين أن المشكلات التي يشكو منها الأهل، في معظمها، هي نتيجة للأساليب الخاطئة التي ينتهجها الأهل في التعامل مع أبنائهم. فكثيرا ما يتصرّف الأهل مع أبنائهم من خلال استخدام أساليب خاطئة وهم "يَحسبون أنهم يُحسنون صنعا". فبالطبع هم لا يقصدون إلا الخير لأبنائهم، لكنهم يُسيئون التصرف معهم بسبب قلة معرفتهم ودرابنتهم بالأساليب المناسبة للفئات العمرية المختلفة.

هناك الكثير من الأبحاث والكتب والنظريات التي تتناول موضوع تربية الأبناء، وذلك للأهمية القصوى التي تحتلها هذه المهمة في حياة الأمم. وفي هذه المقالة سيتم تناول موضوع تربية الأبناء من حيث أهمية تفاعل الآباء والأمهات مع أبنائهم من أجل تربية أسرية سليمة وفعّالة، رجاء الحصول على جيل مميّز يتمتّع بالخصائص الحميدة التي تكوّن الشخصية المتوازنة والمستعدّة للنجاح والتميّز في شتى المجالات. وسيتمّ تناول هذا الموضوع من خلال نظرية النمو النفسي الاجتماعي (Psychosocial Development Theory) لصاحبها أريك أريكسون (Erik Erikson).

أريكسون هو عالم نفس ألماني الأصل، تأثر بنظرية التحليل النفسي لصاحبها فرويد¹، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة خلال الثلاثينيات من القرن العشرين، واختلف مع فرويد في تفسير أهم العوامل التي تؤثر في بناء شخصية الأطفال. فبينما كان فرويد يركّز على الجانب الجنسي-النفسي (Psychosexual) في عملية نمو الشخصية، رأى أريكسون أنه ينبغي التركيز على الجانب النفسي- الاجتماعي (psychosocial) وعدم إغفاله كما فعل فرويد في نظريته. وعلى الرغم من أن أريكسون ليس لديه نظرية مخصصة في تربية الأبناء إلا أن العديد من الخبراء التربويين يرون أن نظرية أريكسون في النمو النفسي الاجتماعي لها دلالات واسعة وتطبيقات عملية جمّة في مجال تربية الأبناء.

تناولت نظرية أريكسون النمو النفسي الاجتماعي للإنسان من الولادة حتى نهاية الحياة. ولهذا الغرض قسّم أريكسون حياة الإنسان الى ثمان مراحل واعتبر أن كل مرحلة منها تُعتبر بمثابة أزمة (Crisis) لا بدّ للإنسان من اجتيازها بنجاح لكي يتم البناء السليم لشخصيته. وكل أزمة تتكوّن من قطبين متضادّين. فعلى سبيل المثال الأزمة الأولى هي محاولة الطفل الخيار بين القطبين التاليين: بين الثقة وعدم الثقة. واجتياز هذه الأزمة بنجاح يكون باقتراب الطفل كثيرا من قطب الثقة والابتعاد عن عدم الثقة بالآخرين. دون الوصول إلى الثقة العمياء (المربع في الشكل أدناه يمثل المستوى المناسب للثقة).

عدم الثقة ----- □ ----- الثقة

وسوف أتناول في هذه المقالة المراحل الأربعة الأولى فقط بحسب نظرية أريكسون لأنها تُعنى بمبادئ مهمة في تربية الأبناء في مراحل الطفولة الأولى؛ ولا بد للمربّين من إدراك هذه المبادئ وتطبيقها حتى يكون لهم دورا إيجابيا في بناء شخصية أبنائهم على أسس سليمة وكفي لا يتسبّبوا في الضرر لأبنائهم من حيث لا يشعرون.

المرحلة الأولى: الثقة مقابل عدم الثقة

من الولادة حتى سن الـ 18 شهراً. رأى أريكسون أن الأطفال خلال هذه المرحلة يبدؤون بتكوين الثقة بالآخرين أو عدم الثقة بهم بحسب تفاعل الأهل مع الأبناء. فإن قام الأهل بتأمين حاجات الطفل من تأمين الطعام والراحة له، فإنه سينكوّن لديه ثقة بالآخرين، وإن تم تجاهل هذه الحاجات الأساسية سيكون طفلاً يتميز بعدم الثقة بالآخرين. والطفل الذي تتميز شخصيته بعدم الثقة، لن يكون طفلاً سويّاً في حياته.

ومن هنا، على الأهل تأمين حاجات الطفل بطريقة مناسبة، دون إفراط ولا تفريط لكي ينمو هذا الجانب من شخصيته نمواً سليماً.

ولا بد من التنبيه إلى أن الشخصية السليمة يكون فيها جانب الثقة غالباً في معظم أمور الحياة، إلا أنها لا تكون ثقة عمياء بل ثقة مع جرعة قليلة من الشك.

المرحلة الثانية: الاستقلالية مقابل الخجل

تمتد هذه المرحلة من 18 شهراً إلى ثلاث سنوات،

في هذه المرحلة وبعد أن تتكوّن لديه الثقة بالديه، يبدأ الطفل بإظهار رغبة بفعل الأشياء بنفسه وبدون مساعدة الأهل³، وهذا شيء جيد يؤدي في النهاية إلى تعلّم الطفل الاعتماد على نفسه وعلى نوع من الاستقلالية الحميدة وعدم الاتكال على الآخرين. ويعتبر أريكسون أن تعلم الطفل استخدام للمرحاض في هذه المرحلة يُشكل معلماً مهماً في نموه النفسي الاجتماعي. فالطفل في هذه المرحلة بحاجة لأن يُجرب بعض الأمور بنفسه كالطعام واللباس فإن سمح له الأهل بذلك مع المراقبة والدعم القليل حسب الحاجة فإن شخصيته ستتجه نحو الاستقلالية الحميدة. أما إن قام الأهل بحرمانه من تجريب الأشياء بنفسه بحجة عدم قدرته على ذلك، والقيام بها بأنفسهم فإن ذلك من شأنه أن يُنمّي لديه الشعور بالاعتماد على الآخرين ويُقلل من قدرته على التعامل مع العالم بنجاح.²

المرحلة الثالثة: مرحلة المبادرة مقابل الشعور بالذنب

تمتد هذه المرحلة من عمر ثلاث سنوات حتى ست سنوات؛ خلال هذه المرحلة يتّجه الطفل نحو إبداء رغبته في اتخاذ المبادرة ومما يُساعد في هذا الأمر نموّ الخيال لدى الأطفال في هذه المرحلة³، فمثلاً قد تُظهر البنت اهتمامها بلعبتها على أنها ابنتها، فتطعمها وتغيّر ملابسها وتلاعبها؛ وقد يبادر الطفل بإحضار كوب من الماء لوالده العائد من عمله في الحديقة تحت حرّ الشمس دون أن يكون قد طلب منه ذلك أحد. ولكن ماذا لو تعرّض الولد ووقع منه كوب الماء وانكسر. كيف ستكون ردّة فعل الوالد؟.. إذا وجّه الوالد اهتمامه إلى الجانب الإيجابي، وشكر الولد على مبادرته بإحضار الماء فإن ذلك من شأنه أن ينمّي حسّ المبادرة عند الطفل؛ ولكن إن قال له: من طلب منك إحضار الماء، وانظر ماذا فعلت.. فإن ذلك من

شأنه أن يفتل حسّ المبادرة عند الطفل. وتكرار هذا النوع من النقد يشكّل عند الطفل شعورا بالذنب ويقلّل من قدرته على أخذ زمام المبادرة حتى عند الحاجة لذلك لاحقا.

المرحلة الرابعة: مرحلة الانتاجية مقابل الشعور بالدونية

وهذه هي مرحلة الطفولة المتوسطة والمتأخرة من ست سنوات الى 12 سنة؛ لقد سمّي أريكسون هذه المرحلة مرحلة الانتاجية مقابل الشعور بالدونية. في هذه المرحلة يُنمّي الطفل مهاراته مما يجعله يشعر بالكفاءة والقدرة على الإنتاج⁴، مثل محاولته تصنيع بعض الألعاب أو كتابة بعض النصوص أو إصلاح بعض الادوات البسيطة في المنزل؛ فإن تشجيع الطفل على الإنتاجية في هذه المرحلة يُعطيهِ شعورا بالفخر والانجاز ويحثّه على استمرار المحاولة في إنتاج وتصنيع ما هو مفيد. وفي المقابل إذا تم توبيخ الطفل وتوجيه اللوم له عند محاولته إنتاج بعض الامور فان هذا من شأنه أن يؤدي الى الشعور بالدونية لديه والنقص وعدم الكفاءة. فالمربي الحاقق هو الذي يهيئ الفرص للأطفال كي يشعروا بقدرتهم على الانتاج ويقدم لهم جرعة مناسبة من المديح كذلك دون إفراط ولا تفريط لكي يساهم في بناء شخصية ناجحة ومميزة.

وفي الختام، لا بد من التنكير بأن فهم هذه المبادئ المنكورة أعلاه وتطبيقها من شأنه أن يساهم في تنشئة جيل واعد يتحلّى أفراده بصحة نفسية متوازنة حيث يتمتعون بمستوى مناسب من الثقة بالآخرين ولديهم القدرة على الاعتماد على الذات في اتخاذ القرارات المناسبة دون الشعور بالنقص والافتكال على الآخرين في معظم شؤونهم. وكذلك نستطيع أن نربي أبناءنا على الجرأة في اتخاذ المبادرات النافعة لأمتنا ولمجتمعاتنا، وأن يكونوا أفراداً مُنتجين في مجتمعاتهم دون الشعور بالنقص أو الدونية؛ بل يتحلّى كل فرد منهم بالثقة بالنفس والانخراط في خدمة المجتمع والأمة.

المراجع:

1. Batra, S. (2013). The Psychosocial Development of Children: Implications for Education and Society--Erik Erikson in Context. *Contemporary Education Dialogue.*; 10(2): 249-278
2. Corey, G., (2013). Theory and Practice of Counseling and Psychotherapy 9th Ed. Brooks/Cole, USA.
3. Crain, W. (2011). Theories of Development: Concepts and Applications. 6th Ed. Prentice Hall, Pearson, USA.
4. Vogel-Scibilia SE, McNulty KC, Baxter B, Miller S, Dine M, Frese FJ 3rd. (2009). The recovery process utilizing Erikson's stages of human development. *Community Ment Health J.*; 45(6):405-414.